



أهل دمشق الشام جار عليهم أهل هذا الزمان، فخلّفُهم بين شريد يَفِرُّ من ملأ إلى مقصف، باحثاً عن سقفٍ متين لا تنفذُ إليه الأسلحة المضادة للدروع، وبين طريد سُدّت في وجهه أبواب الرزق بعد أن صيرت القذائف متجره رُكاماً بعده فرقه فوق بعض.

أهل الشام الكرام الذين فتحوا أبوابهم للغريب قبل القريب، ووقفوا من قوت أولادهم ما يسمك رمق النازح ويحفظ ماء الطريد، واقطعوا من بيوتهم ما يحفظ حياة الشريد في شتاء قارس.

أهل الشام يُجازون اليوم عقوقاً من إخوانهم، وجيرانهم، فنُغلق في وجوههم أبواب البلاد، وتفرض عليهم العقوبات، لا على النظام، ويُحرمون مما كانوا يتصدّقون به على الفقير والمحتج.

في كل حارة من حارات الشام، وفي كل بيت من بيوتها أُمٌّ يكاد ينخلع قلبها كلما خرج ولدها إلى عمله أو دراسته أو شأن من شأنه، ترمُّقه بعينيها مُلقية عليه نظرة، تشكُّ - لولا الإيمان - أنها الأخيرة، تضمُّه إلى صدرها، وتقول له: "دير بالك على حالك الله يرضي عليك يا بنى" ..

تشتهي أن تُخَبِّئَه بين جفونها، لولا حاجة الإنسان إلى الخروج والعمل.  
في كل بيت من بيوت الشام مُصابٌ جَلَل.. ورب مُصابٌ أهون من مصاب.  
فأم ينقطع قلبها حزناً على ابنها الذي تَفَدِيه بروحها لتعلم أهون من الأحياء أم من الأموات؟

لتعلّم، أي فرع إرهابي سُلّم من قلبها؟

تَذَرِّف الدَّموعُ الْغَزَارُ، مَنَادِيَ رِبَّهَا فِي هَجَعَاتِ الْأَسْحَارِ أَنْ تَرَى وَلَدَهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي الرَّؤْيَا عَلَى خَيْرٍ حَالٍ: رَبَّاهُ، قَدْ عَظُمَ الْمُصَابُ، وَأَنْتَ وَحْدَكَ الْعَالَمُ بِالْحَالِ، فَرَدَ إِلَيْيَ ولَدِي وَجَمِيعِ الْمُعْتَقَلِينَ إِلَى أَمْهَاتِهِمْ يَا اللَّهِ.

وَذَاكَ أَبْ حَصَدَ بِالْأَمْسِ بَابَ رِزْقِهِ بِرَمِيلٍ مُنْفَجِرٍ، فَعْدَا كَانَ لَمْ يَكُنْ، وَلَوْلَا لَطْفُ اللَّهِ، لَكَانَ هُوَ الْآخِرُ تَحْتَ الرُّكَامِ، فَتَرَكَتْ عَلَيْهِ الْدِيَوَانَ، فَهُوَ يَذْوَقُ ذُلَّ الرِّجَالِ صَبَاحَ مَسَاءٍ، يَنْتَوِي أَنْ يَخْرُجَ فِي الْغَدِ لِبَيْعَ نَفْسِهِ لَعْلَهُ يَجِدُ مَا يَحْفَظُ رُوحَ أَوْلَادِهِ مِنْ مَوْتٍ مُحْتَمِّ، أَوْ تَشْرُدُ مُرْتَقِبًا!

أَمَا شَوَّارِ الشَّامِ وَحَدَائِقُهَا، فَحَدَّثَتْ عَنْهَا غَيْرَ مَتَّأْمِمٍ أَوْ مَتَّحِرِّجٍ، صُرَّاخٌ وَعَوْيِلٌ، نِسَاءٌ وَأَطْفَالٌ، قَوْمٌ يَفْتَرِشُونَ التَّرَابَ وَيَلْتَحِفُونَ الْبَرَدَ، هَارِبِينَ بِأَرْوَاحِهِمْ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا الْمَوْتَ بِأَعْيُنِهِمْ، يَمْرُّ بِهِمُ الْعَابِرُ فَلَا يَسْتَطِعُ أَنْ يَحْبِسَ مَاءَ عَيْنِيهِ لِمَا أَصَابَهُمْ، مُتَنَزَّكِينَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ قَدْ احْتَرَقَ بَيْتَهُ فِي الْقَصْفِ لَكُنْهُ مَا زَالَ صَالِحًا لِلْسُّكُنِيِّ، وَلِسَانُ حَالَهُ: لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ، لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ رَحْمَانَكَ يَا رَبِّ رَحْمَانَكَ!

شَامُنَا لَنْ تَسْتَكِينَ حَتَّى تَنَالَ حَرَيْتَهَا، وَأَيْقَنْتُ أَلَا نَاصِرٌ لَهَا سَوْاَكَ، فَعَجَّلَ نَصْرَكَ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المصادر: